كلمة صريحة

بين الأدبين المصرى والسورى !

« لكاتب لبنانى »

أفضى الدكتور طه حسين بك إلى بعض الصحف العربية فى سوريا بكلمة يعزو فيها قلة التفات الأوساط الأدبية فى مصر إلى الأدب السورى الحديث — بما فيه اللبنانى — إلى عدم القيام (بواجب الدعاوة ...) لهذا الأدب . ولا حاجة إلى البيان أن الذين ينبغى أن يقوموا بواجب هذه الدعاوة إنما هم أفراد الجالية السورية اللبنانية فى مصر الشقيقة

ولقد أثارت هذه الكلمة بعض الأقلام بالمعارضة وبادّعاء تعذّر القيام بمثل هذه الدعاوة لأسباب لا سبيل الآن إلى ذكرها . وأنا أوثر أن أنقل ميدان هذا الكلام — وما يستتبع — إلى هذه المجلة الغراء لأطلع إخواننا المصريين — فى هذه الكلمة القصيرة — على بعض النواحى المؤثرة تأثيراً مباشراً فى تكييف الحركة الأدبية فى سوريا ولبنان

أما العذر الذى انتحله الدكتور الفاضل — وهو (واجب الدعاوة ...) — يعتنى به تبرير موقف الأدب المصرى الحديث من أن يقال عنه إنه لا يأبه — أو على الأقل — لا يلتفت الالتفات المطلوب إلى تسجيل ظواهر الحركات الأدبية فى بلادنا ؛ هذا العذر ، لا أظن أن الدكتور نفسه مطمئن إلى صحته ، وإنما يكون أغضى — وأحسبه إغضاء متعمداً — عن حقيقة سأسجلها بعد حين على أدبنا — ولو كانت مُرّة مؤلمة —

من الوهن فى التفكير أن يقال إن (الدعاوة) التى تقوم بها الجالية المصرية فى بلادنا — إن كان ثمة جالية مصرية تقوم حقاً بالدعاوة — هى التى أضاءت لنا الأدب المصرى الحديث ، وعرّفتنا به ، وحبّبتنا فيه ، فإن الواقع لا يثبت من هذا شيئاً ، إذ لم نر رجلاً مصرياً فى بلادنا يطرس أية كلمة فى نقد كتاب مصرى صدر فى مصر (والنقد ينتظم حسناته وسيئاته) ، ولم نرَ رجلاً مصرياً يعرض فى مكاتبنا كتباً صدرت فى بلاده دون أن يطلبها منا طالب ؛ اللهم إلا أن يكون مقتنعاً أنها لن ترد ، وأنها ستحوز الرضى ، وستنفق سوقها ، لما لها من أهمية عظمى وحاجة ماسة ، وطلب ملحاح فى بلادنا السورية واللبنانية ، فاذ ذاك يبعث بها فيعرضها ، وليس هذا من الدعاوة فى شىء ، إذ أن هذه المؤلفات لا تفتقر إلى مثل هذه الدعاوة

لهذا كله تصادف المؤلفات المصرية سوقاً رائجة فى بلادنا

وأما متعهدو المؤلفات عندنا — أو المؤلفون أنفسهم — فإنهم لا يجدون ميلاً إلى إرسال مؤلفاتهم لعرضها فى الأسواق المصرية خاصة ، لأنهم مقتنعون أنها لن تحوز الرضى ولن تنفق سوقها ، فيكون هذا داعيهم إلى الاجتزاء بعرضها فى أسواقنا ، وحسبهم ذلك

فالدعاوة التى يناط الدكتور الفاضل بها رواج المؤلفات ، ليس لها من التأثير أى قسط .

فلماذا إذن تصادف المؤلفات المصرية ، وبالجملة الأدب المصرى جواً موائماً فى مصر نفسها قبل سوريا ؟ ولماذا لا يصادف الأدب السورى هذا الجو نفسه فى سوريا بَلْه مصر ؟

أجل ! لماذا يأنس قراؤنا نحن السوريين — صَورةً إلى قراءة المؤلفات المصرية تفوق ميلهم إلى قراءة الكتب السورية حتى إنك لترى الكتب المصرية تحتل المركز الأول فى أسواقنا ؟

هذه أسئلة تتطلب أجوبتها صراحة وصدقاً لا تحامُل فيهما على جانب ، ولا إشادة فيهما ولا إطراء لجانب آخر !

من الحق ألا يعترف المرء أن من أسباب ذلك أن النتاج المصرى أكثر فائدة وأكبر قسطاً فى التفكير الحى ، وأكثر طلاوة فى الأسلوب ، وأوفر جمالاً فى ابتداع المعانى وخلق الطرائف ، وأرهف إحساساً فى تصوير العاطفة ؛ وبالجملة فإن النتاج المصرى أكثر نضوجاً . وهذه الظاهرة لا تخفى على أحد ، ولا يحاول أن يبخس من حقها أحد ، فمصر زعيمة البلاد العربية غير مُدافَعة فى مضمار النتاج الأدبى بكل ما ينتظم من فروع ؛ وإن تكن مصر زعيمة البلاد العربية فى الأدب ، فليس بضائرها أن تلتفت إلى الحركات الأخرى . بيد أن الذى لا شك فى أنه السبب الأساسى فى رواج الأدب المصرى ، وفى كساد السورى — إلى حد — هو أن نتاج السوريين ضئيل ، لا يقاس بوفرة نتاج المصريين وضخامته وغزارته

وآية ذلك أن أي أديب مصري شهير — في عرف المصريين والسوريين على السواء — لا تقل مؤلفاته عن العشرة . وأكثر هؤلاء الأدباء تربو مؤلفاتهم على ذلك بكثير أو قليل . وإنا إذا قلنا (أديب شهير) فإنما أعني أن مؤلفاته لا تجنح إلى الاسفاف أو الضعف ، ولا تميل إلى التعقيد والغموض . وبجملة واحدة أن مؤلفاته معروفة مفيدة قيمة . ومن الطبيعي أن يقوّم الأديب بعدد كتبه القيمة...

ولكننا نرى في أدبنا ، أن أي أديب سوري شهير — في عُرف السوريين نفسه (ولم أشفع منهم للمصريين لقلة اطلاعهم ونقص معرفتهم في هذا المضمار) — لا تربو مؤلفاته عن الخمسة ، وأكثر هؤلاء الأدباء تقل مؤلفاتهم عن ذلك بكثير أو قليل

قد يتجه[1] القارىء هنا أنه قد يكون عزب عن بالي أمرُ المؤثرات في البيئات ، وهذا أمر له قيمته وشأنه . ولكنك إذا استقرأت جميع المؤثرات في الأدب ، وقارنتها بين الأدبيين فإنك تراها تختلف اختلافاً يسيراً ليس من شأنه أن يؤثر هذا التأثير العظيم في النتاج الأدبي لكل من البلدين . فالوسط الذي يعيش فيه كلا الأديبين يكاد يكون واحداً ، والمجتمع كذلك باعتبار أنه مجتمع عربيّ آماله واحدة ، وغايته واحدة ، يتكلم لغة واحدة ، والغالب فيه يدين بدين واحد ، وتحكمه حكومة واحدة ... الخ . وأما البيئة الطبيعية فتختلف كثيراً بين جو مصر الثابت ، وبين جو سوريا المتبدل المتغير بحسب الفصول ؛ وأنا أرى أن التبدل الجوي في سوريا هو في صالح فكر أدبائها ؛ لأنه دائماً يتلون بلونه ويتأثر أكبر الأثر به ؛ فجو مصر الثابت يورث العقل المصري جواً ثابتاً فلا يثير التفكير إلا بقدر . وأما جو سوريا المتبدل فيورث العقل جواً متبدلاً يعد هذا التفكير بأسباب الاضطراب الدائم ، والحركة المختلفة ، فيتمخض عن ألوان من التفكير كثيرة ، وضروب من العاطفة وفيرة[2]

والآن أعود — بعد أن كاد القلم يشط — إلى تعليل سبب هذا البون الشاسع في النتاج الأدبي

إن الأدباء المصريين لا يألون جهداً ، ولا يدخرون قوة في الكتابة ، بل يدأبون على امتصاص مداد القلم ، وعلى ترشف ماء معانيه ، فيكتبون ويكتبون ولا ينضبون ، ويتهال عليهم الإطراء والتشجيع فيزدادون ... أجل إنهم يزدادون ... وهذه الحركة الدائبة في الكتابة تفسح أمامهم طرقاً واسعة لاحبة في التفكير ، وتحسر لأعينهم عن مجال بعة فينظرون ويتأملون، وينهلون كأنهم لا يرتوون

وهم يحسون — إذا ما اضطرتهم ظروف قاسية إلى الانصراف عن الكتابة — بضيق شديد يبرمهم ويؤلمهم ، ويستشعرون حنيناً مشبوباً إلى « العودة إلى الروض ... »

لهذا كله ، انحنى نتاجهم الأدبي ضخماً غزيراً لا ينضب معينه ، ولا يجف مداده

وأما الأدباء السوريون واللبنانيون فهم على عكس ذلك ، وهذه هي الحقيقة المؤلمة

إن حقوق الصراحة لتوجب علينا القول : إن الأديب السوري الذي يقرزم[1] يعتقد أنه أصبح شاعراً أعظم ... وإن الأديب الذي كتب مقالة نالت بعض الإعجاب يثق بأنه أضحى المفكر الذي لا يجارى ، وإن الأديب الذي أصدر قصة أو قصتين يوقن بأنه أمسى القصصي الذي لا يبارى

ولكن من الحق كذلك أن نسجل أن في سوريا ولبنان أدباء وعلماء تجود قرائحهم — إنما طاوعوا نفساً بالكتابة — بدرر بينة وآيات رائعات ، ولكنهم — مع الأسف ، والأسف الشديد — يجودون بمقال واحد في السنة ، ويصدرون كتاباً واحداً في العشر سنين !

إن هذا الانقطاع عن الكتابة من شأنه أن يخمد حيوية الفكر ، ويميت قوى التأمل والنظر إلى بعيد ، ويقضي على شبوب العاطفة . أنا لا أدعي أن ليس في الأدب السوري شيء قيم ، فماذا الله أن يكون ذلك ؛ بل أقول إن الذي يصدر كتاباً قيماً واحداً لا حاجة له بعد الآن إلى إجهاد نفسه وإتعابها . فقد سلس له قياد الفكر الساعي . فليخلد إلى الراحة ، وليركن إلى برجه العاجي ، وليمتسك ما طاب له في منسكه . ألم يطر عليه كافة القراء ؟ ألم تتشوف إليه كافة المجلات ...

الحق الذي لامناص من إتيانه هو أن الغرور والزهو والتكبر — تتملك كلها — أكثر أدبائنا ؛ فينتجون هذا الإنتاج الضئيل . إن كتاباً واحداً تصدرونه — أيها الأدباء فاطبة — لا قيمة له مهما جل فيه من فكر وسما ما يحوي من آراء

ماذا أفدت أيها الأديب (الساخر ..) الذي يدعي أنه يزجي

(١) يمنع (٢) هذه بعض المؤثرات وليست كلها

(١) يتدعى بقول الشعر